القصص الديني

الحلقة الثانية
قصص السيرة

حجة الوداع

عبد الحميد جودة السحار

٢٢

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينا ﴾ .

(قرآن كريم)

١

فتح محمدٌ ﷺ مكّة ، وأسلمتْ قُرَيش . ثم خرج لقتالِ الرُّوم لّما بلَغَهَ أنّهم يُريدونَ الاعتداءَ عليه ، ولكنّه عادَ دون حرب . وجدهم قد هابُوا خروجَه إليهم ؛ وبذلك أصبحَ رسولُ اللّه ﷺ أقوى رجل فى جزيرة العرب ، فجاءت إليه القبائلُ تُعلِنُ إسلامَها طَوْعا . لم يضطرّهم أحدٌ إلى الدخولِ فى الدّين الجديد ؛ وَجَدُوه دينا قويمًا فأسْلمُوا له . وسُمّىَ هذا العامُ عامَ الوُفود ؛ وقد أنزل اللّه سورةَ النّصر بعد إسلامِ القبائل :

بسم اللّه الرحمن الرَّحيم

﴿ إذا جَاءَ نَصْرُ اللّه والفَتْح * ورأيْتَ النّاسَ يَدْخُلونَ في دين اللّه أفواجا * فسبِّحْ بحمْدِ رَبِّكَ واستغفِره إنّه كان توّابا ﴾ .

كان لكلِّ قبيلةٍ صنمٌ تعبُده ، ولما كان الإسلامُ قد جاء ليدعوَ إلى عبادةِ اللّه وحده ، رأى رسولُ اللّه ﷺ أن يُرسِلَ بعضَ صحابتِه إلى الأصنام ، ليُحطّموها ويُحرْقوها ، حتّى يعبدَ النّاسُ اللّه وَحْدَه ، لا يُشركونَ به شيئا .

أسْلَمَتْ ثَقِيف ، وكانت قبيلةً تنزلُ الطّائف ، وتعبدُ الّلات ، وهي صخرةٌ مرتفعة ، يذبحونَ الذّبائح عندها ، ويعظّمونها ؛ فأرسَلَ رسولُ اللّه ﷺ أبا سفيان بنَ حرب ، والمغيرةَ بنَ شُعبة ، لهدمِ الّلات . فلما وصلا إلى الطّائف ، قالَ المغيرةُ لأبى سُفيان :

ـ تقدَّمْ لهدمِ الصَّنم .

كان أبو سفيانَ يعلمُ أنَّ بعضَ النّاسِ لا يزالونَ يُعظّمون الصَّنم ، فخشيَ أن يَعتدوا عليه إذا ذهب لتحطيمه .

ولما كان المغيرةُ من ثقيف ، قال له أبو سفيان :

ـ ادخُل أنت على قومِك .

ودخل المغيرةُ على قومِه ، وقال لهم إنه قد جاء لهدمِ الّلات ، فأرادوا أن يمنعوه ، خشيْةَ أن يقتلَه الّذين يعظّمون الصنّم ، ولكنَّ المغيرةَ أبى أن يسمعَ لهم ، وذهب إلى الصَّنم وقد حمل فأسا .

ذاع فى الطَّائفِ أنَّ المغيرةَ جاءَ يُحطّم الّلات ، فخرجتِ النّسوةُ مكشوفاتِ الرُّءوس يبكينَ الصنَم ، وخرج بعضُ الرِّجالِ ينظرونَ فى خوف ، كانوا يظُنّونَ أن الصَّنَمَ سينتقِمُ من المغيرة .

وأرادَ المغيرةُ أن يسخرَ من هؤلاء الجُهّال ، الّذين يحسَبون أنَّ حَجرًا لا نفعَ له ولا قوّة ، يستطيعُ أن يمنعَ أحدًا من تحطيمِه ، فقال لأصحابه :

ـ لأضْحكنّكُمْ منهم .

وصعِدَ المغيرةُ ليحطّم الصَّنم ، فراح النّاسُ ينتظرون وهم يرتجفونَ خوفا ؛ كانوا يخافونَ ثورةَ الصَّنم . ولما ارتقاهُ المغيرة ، تظاهرَ بأنّه سقط من

فوقِه ، فصاحَ النّاس :

ـ مَنَعتِ اللّاتُ المغيرةَ من أن يهدِمَها ، واللّه لا يستطيعُ هدمَها ، صَرَعَتِ اللّاتُ المغيرة .

وفرِح الرِّجال ، وسُرَّتِ النّسوة ، وقالوا للمغيرة :

ـ ألم تعلمْ أنّها تُهلكُ من عاداها ؟

فقام المغيرةُ يضحكُ منهم ، ويقولُ لهم :

ـ واللّه ما قصدتُ إلاّ الهُزْءَ بكم .

ثم قام إلى اللاّت وحطّمها بالفأس ، وأشعلَ فيها النار بعد أن أخذ مالَها وحُلِيَّها . ولما رأى النّاسُ أنّ الصَّنمَ الّذى كانوا يعبُدونه من دون اللّه قد تحطّمَ وصار رَمادا ، لا يستطيع أن يَحْمىَ نفسَه ، عجبوا من غفلتهم ، وزادهم ذلك إيمانًا برسالةِ رسولِ اللّه ﷺ وتثبيتا .

٢

جاء أوانُ الحجّ ، وعلِمتِ القبائلُ أنّ رسولَ اللّه ﷺ ، خارجٌ إلى مكّةَ ، ليُؤدّىَ فريضةَ الحَجّ ، فأقبلتِ الوفودُ على المدينةِ أفواجًا أفواجا ، وضُرِبَتِ الخيامُ حولَ المدينةِ ، لمائةِ ألفٍ أو يزيدون ، ينتظرونَ الخروجَ إلى بيتِ اللّه ، مع رسولِ اللّه ﷺ .

وتجهّز النّاس ، وخرج الرّسولُ معه نساؤه ؛ كنّ فى هوادِجهنّ والتفّ حوله صحابتُه الأوائل ، الّذين جاهدوا معه فى سبيلِ الإسلام ؛ كان حولَه أبو بكر وعُمَر وبلال والمهاجرون ؛ ولم يظهرْ بينَهم علىٌّ بنُ أبى طالب ، لأنّ رسولَ اللّه ﷺ قد أرسلَه إلى اليمن ، يدعو أهلَها إلى الإسلام .

وارتفع صوتُ بلال مُؤذّن الرّسول يدعو النّاسَ إلى الصّلاة :

اللّه أكبر ! اللّـه أكبر ! اللّـه أكـبر ! اللّـه أكـبر ! أشهدُ أن لا إلهَ إلاّ اللّه ، أشهدُ أن لا إله إلا اللّه .

فصلى رسولُ اللّه ﷺ الظُّهر بالنَّاس ، صلاةَ أربعَ ركعات ، ولّما انتهتِ الصَّلاة ، ركِب ناقتَه القصواء ، وسـار ، وسـارت جُمـوعُ النَّـاسِ خلفَـه ، وتذَّكـر المهاجرونَ يومَ جاءوا إلى المدينةِ هاربين ، يـومَ كـانوا قلَّةً مُضطهَدين ، ورأوُا الجموع الهائلةَ تسيرُ خلـفَ الرَّسولِ جماعات ، فامتلأتْ قلوبُهم غِبطة ، وشكروا اللّه الّذى أيَّدهم ونصرَهم ، فصدقَ وعدَه .

لم يكنِ الْحُجّاجُ يحملونَ معهـم أسـلحة ، ولمـاذا يحمِلونَها ! لقد أصبحتِ البلادُ كلُّها تدينُ بالإسلام ، وانتهـت العـداوة ، ولَم يعُـد هنـاك حاجـةٌ لحمـل السُّيوف ، فمـا كـان رسـولُ اللّـه ﷺ يلجـأُ إلى السَّيف ، إلاّ ليدافعَ عن نفسِه ، ويحمىَ دينَ اللّه مـن الاعتداء ؛ إنه لا يعتدى ، لأنَّه يعلمُ أنَّ اللّه لا يُحـبُّ المعتَدين .

واستمرَّ الناسُ فى سيرهم ، حتّى إذا جاءَ العصْر ، صَلُّوهُ خلفَ النَّبىِّ ﷺ ركعتَين ، وهـذه الصلاةُ القصيرةُ تُصلّى فى السَّفر ، تخفيفًا عن المُسافر .

ونَزَلَ النّاسُ يستريحونَ ويبيتونَ ليلتَهم ، ولّما جاءَ الصَّباح ، ركِبَ النبىُّ ناقَتَه ، وركِبَ النّاسُ جمالَهم ، وقبلَ أن يسيروا قال رسولُ اللّه ﷺ لهم :

ـ جاءنى جبريلُ فقال : يا مُحمَّد ، مُرْ أصحابَك ، فليرفعوا أصواتهم بالتَّلبية ، فإنها شعارُ الحَجّ .

ونادَى محمَّدٌ ملبِّيا :

ـ لبَّيكَ اللهمّ لبَّيك ، لبَّيكَ لا شريكَ لك ، إنَّ الحمدَ والنِّعمَةَ لك ، والمُلكَ لك ، لا شريكَ لك .

فارتفعتْ أصواتُ المُسلمينَ بالتَّلبيةِ خلفَه ، وتجاوَبَ الفضاءُ بالنِّداء .

واستمرَّ النَّاسُ فى سيرِهم ، حتى بلغوا مكَّةَ بعدَ أيّامٍ وليال ، فلمّا رأى النَّبىُّ الكَعبة ، رفع يدَه وقال :

ـ اللّهمَّ زِدْ هـذا البيـتَ تشـريفًا وتعظيمًـا ومهابـةً وبرّا ، وزِدْ من شرّفَهُ وكرّمه ، ممّنْ حجّه أو اعتمرَه ، تشريفًا وتكريمًا وتعظيما وبرّا .

وأحسَّ الرسولُ أنّه لا يقوَى على أن يطوفَ حولَ الكعبةِ على قدميه ، فطافَ علـى راحلتِـه القَصْواء ، واستقبلَ القبلةَ ، وقال :

ـ لا إلهَ إلاّ اللّهُ وحدَهُ لا شريكَ له ، لهُ الملكُ ولهُ الحمْد ، وهو على كلِّ شـيء قدير ، لا إلـهَ إلاّ اللّـهُ وحدَه ، أنجزَ وعدَه ، ونصر عبدَه ، وهزَمَ الآحـزابَ وحدَه .

وسـار الرسولُ والْحُجّـاجُ خلفـه إلى عَرفـات ، وعَرفاتُ ليستْ جَبَلا ، بل هى صخرةٌ واسِـعَة على ارتفاعِ مائتى قدم ، وقد بلغـتْ ناقةُ الرسولِ قِمَّتَها فى سُهولة . وقـام رسولُ اللّـه ﷺ ، يُصلّـى فـى عَرَفات ؛ واصطفَّ آلافُ الْحُجّاج خلفَـه يُصلُّون ،

ولما انتهى من صلاتِه ، نـزلَ عليـهِ الوَحـى يُعلنـه أنّـه أدّى رسالةَ ربّه ، وأنَّ دينَ الإِسلامِ قد اكتَمل ، فقرأَ النَّبيُّ ﷺ على النّاسِ ما أُوحِيَ إليه :

﴿ اليومَ أكملتُ لكـم دينكَـم ، وأتممـتُ عليكـم نِعمتى ، ورضيتُ لكُمُ الإِسلامَ دينا ﴾ .

ونظر عُمَرُ إلى النَّبيِّ ﷺ وبكـى ، فـالتفتَ النّـاس إليه فى دَهَش ، وقالوا : ما يُبكيك ؟

شعر عُمَرُ أنَّ النَّبـى ﷺ أدَّى رسـالة ربِّـه ، وأنّ ذلك دِلالةٌ على قُربِ وفاةِ الرسول ، فحزَّ ذلك فـى نفسِه ، وجرتِ الدموعُ من عينيه ، وقال فى حُزن :

ـ ليسَ بعد الكمالِ إلا النُّقصان .

٣

عاد الْحُجّاجُ إلى مِنىً وهم يُلبُّون :

ـ لَبَّيك اللَّهمَّ لبَّيك . لبَّيكَ لا شريكَ لكَ لبَّيك .

واقتربَ الْحُجّاجُ من مِنى ، وأخذوا يرمُونَ صخرةً هُناك بالحَصى ؛ ففى هذا المكان ، قابلَ سيِّدُنا إبراهيمُ وهو ذاهبٌ ليذبح ابنه إسماعيل ، إبليس ، فرماه بالحَصى ، ويُعرفُ هذا فى الحجّ ، برمىِ الجَمَرات .

وجىءَ بالإبلِ والغنمِ فذُبحت ، وأخذَ النّاسُ يقصُّون شَعْرَهم وأظفارَهم ، وخلعُوا الثّيابَ البيضَ الّتى كانوا يلبَسونها ، وهى ثيابُ الإِحرام ، ولبِسوا ثيابَهم ، ووُزِّعت لُحومُ الاضْحِياتِ على الناس .

وفى اليوم الثّالث ، ركِب رسولُ اللّه ﷺ ناقَتَه ، ووقفَ فى وادى مِنَى ، وخطبَ فى النّاس :

- أيُّها النّاس ، اسمَعوا قولى ، فإنّى لا أدرى لعلّى لا ألقاكم بعد عامى هذا ، بهذا الموقف أبدا .

أَيُّها الناس إن دماءَكم وأموالَكم عليكُمْ حرام ، إلى أن تلقَوْا ربَّكم ، كحُرمةِ يومكم هذا ، وكحُرْمةِ شهرِكم هذا ، وإنّكم ستلقَون اللّه فيسألُكُم عن أعمالِكم ، وقد بلّغت . فمن كانت عندَه أمانةٌ فلْيُؤدِّها إلى من ائتمنَه عليها . وإنَّ كلَّ رِبًا موضوع ، ولكن لكم رءوسُ أموالِكم ، لا تظلِمون ولا تُظلَمون . وإنَّ كلَّ دمٍ كان فى الجاهليةِ موضوع . أما بعد ، أَيُّها النَّاس ، فإن الشيطانَ قد يئِسَ أن يُعبَد بأرضِكم هذه أبدًا . ولكنَّه يطمعُ فيما سوى ذلك ، فقد رضىَ به مما تُحقّرون من أعمالِكم ، فاحذروه على دينِكم .

أما بعد أَيُّها النّاس ، فإن لكم على نسائِكم حقّا ، ولهنَّ عليكُم حقّا ، فاستوصُوا بالنساءِ خيرا ، فإنهنَّ

عندكم عَوَان ، لا يملِكن لأنفسِهنّ شيئا .

فاعقلوا أيها النّاسُ قَوْلى ، فإنى قد بلّغت . وقد تركتُ فيكم ما إن اعتصمتُم به ، فلن تضِلوا أبدا ، أمرًا بيّنا : كتابَ اللّه وسنّةَ نبيّه . أيُّها النّاس ، اسمعوا قولى ، واعقِلوه ، تَعلمُنّ أنّ كلّ مسلمٍ أخٌ للمسلم ، وأنّ المسلمينَ إِخْوَة ، فلا يحِلُّ لامرىء من أخيه إلاّ ما أعطاهُ عن طيبِ نفسٍ منه ، فلا تظلِمُنّ أنفسكُم ، اللّهمّ قد بلّغت .

فصاح الناس :

- اللّهمّ نعم .

فرفع رسولُ اللّه ﷺ وجهَه إلى السَّماءِ وقال :

اللّهمّ اشْهَد .

ولما كانت هذه آخرَ خُطبةٍ خطبها رسولُ اللّه ﷺ

قبلَ موتِه ، سُمِّيت خطبةَ الوَداع .

٤

انصرف الحُجّاج ، فقدِ انتهى الحجّ ، وأخذ النبىُّ ﷺ أزواجَه ، وعاد بهنَّ إلى مكة ، وبقِيَ النّاس ثلاثةَ أيام ، ليستعِدّوا للعودة إلى المدينة ، وفى ذاتِ ليلة جلسَ النّبىُّ ﷺ يفكّر ، إنه أتمَّ رسالةَ ربِّه ، ودخل النّاسُ فى دينِ اللّه أفواجا ، وتذكر أيّامَ اضطهادِه وتعذيبه ، فخطرتْ على ذهنِه خديجة ، زوجتُه الّتى صدّقتْه لمّا كذّبه الناس ، وآزرته وشجّعته وواسته ، حتى استطاعَ أن يبلّغَ رسالاتِ ربِّه ، فأحسَّ رغبةً فى أن يذهبَ إلى قبرِها يزورُها ، وفى

سكونِ الليلِ ترك أصحابَـه ، وركِـب بغلَتـه ، وسـار إلى المقابر ، حتى إذا أتى قبرَ خديجة ، نزل عن بغلتِه ، وجلس بجوارِ القبر ، يفكّر فى الزوجـةِ التـى عاونتـهُ بمالهـا ، وأحاطتْـه بعطفِهـا ، ولم تُرهقْـه بثرثرتهـا ، الزوجةِ التى كان لها الفضـلُ الأوّلُ فى هـذا النّصـرِ العظيمِ الّذى ناله .

وقام رسـولُ اللّه ﷺ وركِـب بغلَتـه ، ليعودَ إلى مكّة ، وغاب فى الظـلام ؛ كـان فى طريقـهِ لِيُـوَدِّع الدُّنيا ، بعد أن أتمّ رسالَتَه ، وودَّع الناس .